



الفصل الأول

الأسس الفكرية التي قامت عليها الحضارة الغربية المعاصرة

لم توجد الحضارة الغربية المعاصرة من فراغ ، بل كانت هناك سلسلة متتابعة من المفكرين الذين وضعوا الأفكار التي قامت على أساسها هذه الحضارة ، وكانت هذه الأفكار بمثابة الشعلة التي أضاءت الطريق لمن وضعوا هذه الأفكار موضع التنفيذ .

ولم تكن الأفكار التي قامت عليها الحضارة الغربية وليدة جيل واحد من المفكرين ، بل تتابعت أجيال المفكرين والفلاسفة جيلاً بعد جيل كل واحد يضيف إلى ما سبقه . بل إن بعض الأسس الفكرية التي قامت عليها الحضارة الرأسمالية وضع لبناتها الأولى فلاسفة عاشوا قبل الميلاد ، ثم تم إحياء فكرهم بعد مرور أزمنة طويلة بعد الميلاد . فهناك من جدد هذه الأفكار وأضاف إليها ما يراه في ضوء حياته المعاصرة . لذلك حاولت تتبع هؤلاء المفكرين ابتداء من أفلاطون قبل الميلاد حتى نيتشه في القرن التاسع عشر بعد الميلاد . كل هؤلاء الفلاسفة والمفكرين كانوا سلسلة واحدة أسست لهذه الحضارة التي نعيش الآن في ظلها ، والتي فرضت علينا رؤيتها للحياة سواء الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو الأخلاقية تحت زعم أنها حضارة عالمية يجب العيش طبقاً لمبادئها حتى تصبح الحياة جنة الفردوس المفقودة على الأرض .

ولا يتسع المجال هنا لذكر كل الفلاسفة والمفكرين الذين وضعوا الأسس الفكرية للحضارة الغربية ، لذلك تم اختيار بعضهم على سبيل المثال وليس الحصر .

1- أفلاطون (427-347 ق.م):

كان يجب أن يرى العدالة قائمة على وجه الأرض، الاستقامة في الفرد والعدالة في الدولة. فهذه الدولة الخيالية التي يهفو إليها قلبه، يصفها في " أول كتاب في التاريخ يصف المدينة الفاضلة كما تخيلها أفلاطون.

وإذا أردنا أن تكون عندنا فكرة عن جمهورية أفلاطون، فعلينا أن نلم بحياة مواطنيها منذ يولدون. فمواليد الجمهورية ثمرة للتزاوج المشاع، فيتصل خير الرجال بخير النساء، تحقيقا لغرض واحد، وهو إنجاب نسل رفيع. وتكون هذه النسوة لهؤلاء الرجال على الشيوع. فالجمهورية يجب أن تخلو من الزواج الفردي، والأسر الخاصة. ولا يكاد الأطفال يولدون حتى يعزلوا عن آبائهم ويودعوا محاضن الدولة، ويجب ألا يعرف الآباء أبناءهم، والأبناء آباءهم. وبهذه الوسيلة دون سواها، تستطيع الأخوة العالمية أن تنتقل من عالم النظريات إلى الواقع، فكل فرد من هذه الدولة يمكن أن يكون أخا لكل إنسان آخر.

وليس على الآباء أن يقصروا نشاطهم الجنسي على شركاء حددوا لهم، فلهم بعد أن ينجبوا أطفالا للدولة أن يتحللوا من هذا القيد بشرط أن يبذلوا قصارى جهدهم في إجهاض أى جنين يمكن أن يخرج إلى الحياة من هذه السبيل.

إذا فأمر الحب المتحرر (متروك لتقدير الفرد، ذكرا كان أو أنثى، لأن حياة المواطنين الخاصة يجب ألا تكون من أعمال الدولة، وإنما يهتمها ألا يتعدى المواطنون بعضهم على بعض في سعيهم إلى سعادتهم الفردية.

أما عن أطفال الدولة فإنهم لا يكادون يولدون حتى يودعوا محاضن الدولة، ويتلقوا تعليما واحداً حتى سن العشرين، وهذا التعليم التمهيدى يتكون في معظمه من الألعاب الرياضية، والموسيقى لتنمية الجسد والعقل. ويختلط الجنسان في المدارس التي يتلقون فيها هذه الدراسة. وعلى البنين والبنات أن يتخففوا من ملابسهم جميعا حين قيامهم بالتمارين الرياضية. فمواطنو الجمهورية - كما يقول أفلاطون - يكفيهم ثوب الفضيلة شعارا، ويجب ألا يستشعروا الخجل الكاذب أو السخرية حين يرون الجسم البشري.

تعليم الأطفال إذاً لابد وأن يخلو من الحياء المصطنع، وكذلك يجب أن يخلو من العسر والإرهاق، فيكون التعليم لذة ومتعة لا تعذيباً وعتناً. وهكذا يسير تعليم الأطفال حتى سن العشرين، ثم يعقد لهم امتحان عام عسير، ومن ثبت عجزه عن متابعة التعليم سلك في الطبقة الدنيا، طبقة الزراع والصناع ورجال الأعمال أولئك هم "معدن الدولة الخسيس".

أما من نجح في الامتحان فيواصل التعليم حتى سن الثلاثين، فيتعلم الحساب والهندسة والفلك بغرض تنمية حاسة الجمال فقط لا لفوائدها العلمية. وبعد دراسة هذه العلوم حتى سن الثلاثين يعقد امتحان تصفية جديد. فمن نجح واصل دراسته، ومن أخفق سلك في الطبقة الوسطى، طبقة الجند حراس الدولة، الذين يدافعون عن الدولة وليس للعدوان على الآخرين.

أما ذوو العقول الأسمى الذين تتمخض عنهم التصفيتان، فيتخصصون لدراسة الفلسفة، وهم رجال ونساء يتدربون على ولاية شئون الحكم في الدولة. وبعد دراستهم للفلسفة لمدة خمس سنوات ينتهى التعليم النظرى، وعليهم آنذاك أن يتدربوا على شئون الحكم، فينزلوا من علياء تأملاتهم إلى ما يقوم به الناس في الحياة اليومية، فلا بد أن يتعلموا الحياة قبل أن يسمح لهم بالمشاركة في توجيهها، ومن أجل هذا يقضون خمسة عشر عاماً، يتحتم عليهم فيها أن يندمجوا في الحياة العملية. حتى إذا بلغوا الخمسين يكونون قد أكملوا العدة للقيام بدور الملوك الفلاسفة، فليس يجدر بحكم الجمهورية المثالية غير الفيلسوف.

إن الدولة المثالية يجب أن يتولى أمرها خير الناس، وهم الفلاسفة، ومن هؤلاء الفلاسفة تتكون أعلى طبقة، ولها على الطبقتين الآخرين حق الطاعة في جميع الأحوال. ويجب أن يحرم اقتناء المتاع على هؤلاء الحكام، ضماناً لأمانتهم، فكل ما يملكون مشاع بينهم، وهم يأكلون طعامهم في مطاعم عامة، وينامون في ثكنات وليس لهم غرض خاص، فهم لذلك يمتنعون عن الرشوة، ولا يطمعون إلا في شىء واحد هو إقامة العدل بين الناس والعمل على بقائه أبداً الدهر.

هذه هى الجمهورية الفاضلة كما تخيلها أفلاطون بدايتها الجنس الحر المشاع بين الرجال والنساء ، خالية تماما من الحياء بين الرجال والنساء ، فهل هذه هى المدينة الفاضلة؟⁽¹⁾.

2- أبيقور (342ق.م - 270ق.م)⁽²⁾ :

يرى أبيقور أن الهدف من العيش أن نستمتع بالحياة، ولكننا لن نستمتع بالحياة ما لم نفهمها، فيجب أن نفهم العالم الذى نسكنه، ونذكر طبيعة سكانه، ومعنى ذلك أننا يجب أن نعرف من نكون؟ ولماذا صرنا إلى ما نحن عليه؟

وعلىنا قبل كل شىء أن نفهم فى وضوح من نحن ، فالإنسان - كما يرى أبيقور - ليس ابنا لإله كريم ، بل ربيب طبيعة لا يهملها من أمره شىء . فليست الحياة خطة رسمتها يد فنان مقدس، وإنما هى حدث طارئ فى كون آلى . ولكننا إذا شئنا يمكن أن نجعل منها حدثا سعيدا أو ممتعا على الأقل، وذلك بأن نحرر عقولنا من الخوفين الكبيرين اللذين يفسدان الحياة على الإنسان وهما : الخوف من الآلهة، والخوف من الموت.

فليس هناك أى داع للخوف من الآلهة ، فنحن لسنا لهم عبيداً ولا سلطان لهم علينا، لأنهم لم يخلقونا، بل هم لم يخلقوا شيئاً فى الواقع. والكون لم تصنعه يد الله، بل جاء نتيجة عارضة لحركة الذرات خلال الفضاء اللانهائى . وهذا يؤدى بنا إلى نظرية الذرة عند أبيقور، حيث يرى أن هناك مواد للبناء من ذرات لانهاية لها ، أى لبنات ذرية لانهاية لها تُبنى منها العوالم . وأن المجموع الكلى للمادة ثابت ، أى أن مجموع اللبنات التى يبنى منها الكون ثابت على الدوام لا يتغير . فلا يمكن أن يضاف إليه شىء من لا شىء، أو ينقص منه شىء فيتحول إلى لا شىء.

(1) هنرى توماس ودانالى توماس، أعلام الفكر الأوروبى، ترجمه عثمان نويه، كتاب الهلال، دار الهلال ، العدد 313، محرم 1397هـ/يناير 1977، ص 11-29.

(2) أعلام الفكر الأوروبى ، هنرى توماس ودانالى توماس، ترجمه عثمان نويه، الجزء الأول، دار الهلال، العدد 313 يناير 1977، ص ص 44-57.

فالكون إذاً يتركب من لانهائية خالدة من شىء ما..... أى من الذرات المادية ، وهذه الذرات لا تولد ولا تموت ولا تتحول ، إنها تتحرك أبداً إلى أسفل خلال الفضاء اللانهائى، ولكنها فى حركتها إلى أسفل تحيد عن الجادة من آن لآخر، وتتكتففتكون منها مادة النجوم والأرضين والأقمار والشموس والأكوان.

هذه الذرات تختلف وزنا وشكلا وحجما، وهذا التنوع يفسر اللانهائى للأشياء التى يتكون منها العالم الذى نعيش فيه. على أن العالم الذى نعيش فيه يوجد غيره الكثير من العوالم الأخرى لا تقل عنه سعة وروعة وعجبا.

وهذه الحركة الدائرية للذرات تجرى بتلقائية، لا تهديها يد، لأن الآلهة نفسها مخلوقات آلية نشأت من تكتف الذرات ، وإن كانت ذراتها أدق وأخفى من ذرات البشر ، وهى تحيا فى سماواتها الشاسعة، وهى تنعم بخلود مبارك، لا يحفل مطلقا بسرور البشر وأساؤه وصراعه على الإطلاق . فحياة الإنسان - كما يرى أبيقور- مهزلة بالغة الجنون، لا يمكن أن تنبت فى ذهن قصاص عاقل جدير بأن يقام لتكريمه معبد، ثم ينزل على المعبد صاعقة من السماء تدمره! وأن يعقل أن إلهها رحيماً يبرئ طفلاً صغيراً من مرض خطير ليسلمه إلى موت أبشع فى ميدان القتال!

إنما يستمتع الآلهة بنعيم مقيم فى فردوسهم بين الأكوان، لأنهم قد تحرروا من هموم البشر وتبعاته وآلامه ، وما هو مبارك خالد لا يستوى عنده الابتسام والعبوس، والعطف والقسوة، قد برئوا من المتاعب، فباعدوا بينهم وبين متاعب البشر أقصى ما يكون البعد. وإذا كان الآلهة لا يحفلون بشىء من أمر الناس، فلماذا يحفل الناس بأمر الآلهة.

يرى أبيقور أن الموت هو نهاية وجودنا ، فالروح تموت كما يموت الجسد ، لأنها مركبة من ذرات ، وأنها نوع من الطاقة السائلة تملأ الجسد كما يملأ الماء الوعاء. وتظل الروح متماسكة ما بقى الجسد حتى إذا تصدع انسكبت الروح السائلة، وانحلت إلى قطرات منعزلة هى ذراتها الفردية. فالروح تولد مع الجسد وتموت بموته.

لقد عجزت نظرية أبيقور عن إقناع العقل الحديث ، كما أنها عجزت فعلا عن إقناع كثير من العقول القديمة. لأنها تغفل عن أمرين هما: أنها لا تفسر كيف تتمخض

حركة المادة غير الواعية عن فكر واع، أنها لا تفسر فكرة الحركة نفسها في بداية أمرها ... ماذا يحرك الذرات، ومن ذا الذى يحركها؟ ولماذا يحركها؟ أو كما قال أحد العلماء الأوربيين في بساطة " إذا كان العالم يدور فمن الذى يديره " ؟.

3- دافيد هيوم (1711م – 1776 م):

من أصل اسكتلندى ، عمل رئيسا لمكتبة كلية الحقوق بأدنبره . ولقد تضخم جسمه جداً من طول الجلوس إلى عمله الذى أصاب منه مالا وفيراً ، وأصبح فى المجتمع علماً . . أو أسداً كما يقولون . . ولكنه أسد غاية فى الوداعة والسلاسة والبدانة . وكان إذا سافر فى عربة فمالت إلى جانب مال بجسمه على رفاقه فملئوا رعباً .

يقول أصدقاء دافيد هيوم عنه: " إن دافيد - على كرم سجيته - يحب أن يصدّم الناس فى آرائهم وأنه غير مؤمن " حيث حضر مرة العشاء فى منزل صديق له من الأتقياء ، فغادر المائدة فجأة مصرّاً على ألا يتناول طعامه فى حضرة عدو .

* " عدو ؟ "

* " نعم " أجاب دافيد هيوم فى إصرار ، مشيراً إلى الكتاب المقدس وكان فوق المنضدة " خذه بعيداً " .

* ولكنك يا دافيد اسكتلندى ، وكنت غاية فى الاعتدال والطيبة ، وكنت إنساناً هادئاً معتدلاً المزاج " .

فأجاب دافيد " لازلت رجلاً طيباً معتدلاً المزاج ، عاقلاً ، وفاضلاً ، مقتصداً ، منظماً ، هادئاً ، طيب النفس . . . سىء الخلق " .

وكان قد ألف العديد من الكتب منها كتابان غاية فى الهدم: أحدهما يدافع فيه عن الانتحار ، والآخر ينكر فيه خلود الروح . وقد نشر رسالة مطولة فى التاريخ الطبيعى للدين " وفيها تناول بالنقد الحجج التى تؤيد الخلود فى تفصيل لم يسبق إليه ، فدحضها واحدة بعد واحدة ، وأعلن " أن العالم كله إنما يمثل فكرة طبيعية عمياء . . تُلقى من حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية بأبنائها المشوهين والمجهدين " وقد سار فى هذا

الكتاب على مألوف عاداته فلم يظهر أى احترام للمسيحية ، بل ذهب إلى أن خير وسيلة يصير بها الإنسان مسيحياً حقاً أن يكون متشككاً .

-

-

..

."

"

:

."

"

على أن دافيد هيوم الذى مقتته الإنجليز ، مالت إليه نفوس الفرنسيين ، واستقبل استقبالاً حافلاً فى البلاط الملكى بفرنسا حين عين سفيراً لإنجلترا فى فرنسا .

وفى فرنسا وقع هذا المتشكك العظيم " " فى حب "

" واحتضنه صائحا " ، وكان روسو فذا فى

سوء سمعته ، فقد سبق فى هذا المضمار كل مجانين الفلسفة فى هذا القرن . إلا أن الود بينهما لم يدم طويلاً ، فقد تشاجرا ، وكان لهذا الشجار صدى دوى فى أرجاء العالم⁽¹⁾ .

4 - ميكافيللى (1469م - 1527):

يرى ميكافيللى أن هناك فرقا شاسعا بين الحياة كما هى فعلاً ، والحياة كما ينبغى أن تكون . ثم يقرر بوضوح تام أن ولاءه التام لما هو قائم فعلاً ولا يهتم إطلاقاً بما ينبغى أن يكون . لذلك يرى أن من يفعل الخير سيعود عليه بالوبال ، وسيورده المهالك ، أما من يعمل الشر ويجيد استخدام وسائله فهو من الناجين . وهذا يعنى التخلّى تماماً عن أى هدف إنسانى أو أخلاقى نبيل ، ويصبح الهدف النهائى مسألة تحددها كل مؤسسة أو جماعة أو دولة حسب رغباتها ومصلحتها أو حسب رغبة القائم عليها . وبذلك تنفصل السياسة عن الأخلاق تماماً مثل الانفصال بين العلم والأخلاق ، والصناعة

(1) لمزيد من التفاصيل : هنرى توماس ودانالى توماس ، أعلام الفكر الأوروبى ، ترجمه عثمان نويه ، دار الهلال ، العدد 313 ، محرم 1397هـ / يناير 1977 م ، ص ص 155-175.

والأخلاق ، والمجتمع والأخلاق ، والفرد والأخلاق ، وباختصار تنفصل كل أمور الحياة الدنيا تماما عن الأخلاق، وهذا هو جوهر الحداثة الغربية المعاصرة.

إن ميكافلي يقف على طرف النقيض من الأخلاقيات المسيحية التقليدية، فهو يرى أن الأخلاق التي يجب أن تسود تتمثل في : " رهبة خيرٌ من محبة " - قلد الثعلب والأسد " - لا تكف عن التظاهر والكذب " - لا تتوانى عن ارتكاب الشرور " وهكذا إلى آخر الصفات الواقعية التي تدل على أن الإنسان الذي يتحلّى بها واقعى وعلمى وموضوعى . إن المطلوب هو أخلاق تمجد القوة والسلطة والاستقلال والطموح . وبذلك خلق ميكافلي صورة جديدة للأخلاق الوثنية، التي تفصل تماما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

وبناء على ذلك تصبح الدولة قيمة أخلاقية مطلقة تتخطى كل القيم الأخرى ، بمعنى أن تتكيف الأخلاق مع مصالح الدولة لا أن تخضع الدولة للقيم الأخلاقية ، وهذا هو جوهر فصل الدين عن الدولة ، ومن ثم فإن السياسة نشاط علمى لا علاقة له بالأخلاق.

5- توماس هوبز الإنجليزى (1577م - 1679):

نظر إلى المجتمع المعاصر له فرأى " مجتمع السوق " غابة من الصراع التنافسى، ورأى أنه لا يوجد غير الصفقات بدلا من المجتمع ، ولا يوجد سوى حيوانات ذات غرائز أساسية. فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان، والمجتمع هو ساحة قتال الجميع ضد الجميع . إن البشر من وجهة نظر هوبز ما هم إلا آلات تطرح مقدار الألم الممكن من الفائدة المادية الممكنة قبل أن تسلك أى سلوك . وأن الدافع وراء أى سلوك بشرى ليس حب الآخرين، بل هو حب الإنسان لذاته فقط . فكل إنسان يحاول أن يزيد ثروته، أو سلطته، أو نفوذه إلى أقصى حد ممكن . والقيم الأخلاقية ليس لها أى معنى إلا فى إطار إشباع هذه الرغبات ، وهذه هى الغابة.

ولأن الحضارة الغربية ؟ حضارة إجراءات تتعامل مع الواقع الموضوعي، ومع السطح القابل للقياس، فإنها لا تتعامل إلا مع الإنسان الخارجي () ، أما الإنسان الداخلي () فهذا أمر متروك للفرد كُلّ وشأنه.

فالإجراءات الخارجية موضوعية محسوبة مقاسة ، أما عالم الحب والكره - عالم التعامل بين الأفراد كبشر - فأمر متروك للذوق الشخصي أو لوسائل الإعلام . لذلك فإن الحضارة الغربية الحديثة التي وضعت إنسانا على سطح القمر بكفاءة شديدة، غير قادرة على وضع رجل داخل أسرة مستقرة ، وغير قادرة على أن تضع حلاً لانتشار المخدرات أو الأمراض السرية . إن ظاهرة الأمهات غير المتزوجات وأولاد السفاح لا تسبب أى انزعاج لأحد في الحضارة الغربية الحديثة ، إذ أن الحل دائما جاهز وهو اتخاذ الإجراءات اللازمة مثل إقامة ملاجئ للأطفال وخلق جو طبيعي لهم حتى لا يشعروا بغياب الأب . إن الحضارة الغربية القائمة على الإجراءات ترصد الواقع ولكنها غير قادرة على تغييره بشكل ينهض به، فهي لا تجابه الواقع بقيم أخلاقية ثابتة أو مثل عليا مستقرة ، بل ما تقررته الأغلبية يصبح هو الحقيقة والخير، طالما أتُبعت الإجراءات السلمية في الوصول إلى القرار.

ويرى كثير من علماء الاجتماع والاقتصاد في الغرب أن هذه الإجراءات ضرورية بل هي حتمية لإنجاز عمليات التحديث. ومن ثم وضع تعريف للحدث في الغرب بأنها مقدرة الإنسان على تغيير القيم بعد وقت قصير للغاية ، أى إن حدث الإنسان تكمن في مقدرته على التغير بسرعة وأنه يعيش في بيئة كل ما فيها يتغير . ومن ثم يصبح التغير فكرة محورية في الفكر الغربي.

لقد ترسخت فكرة التغير في الوجدان الغربى ، إذ أصبح الإنسان الغربى مؤمناً بأن

"

"

إن هذا الإيهان بالتغير كمطلق وحيد و يقين أوحد وغاية وهدف، التغير الكامل دائماً وأبداً، قد يؤدي إلى لا شىء ، أو لعله قد يؤدي إلى دمار الإنسان والكرة الأرضية إن لم تتم عملية التغير داخل حدود، وإن لم يكن لها عقل وروح ، وإن لم تفترض مركزية الإنسان فى الكون ، واعتبار الإنسان هو الغاية ، وأن الهدف من وجودنا فى هذا الكون هو تحقيق آمياتنا الإنسانية التى تتجاوز حدود المادة المتغيرة.

ولكننا نتساءل كيف يمكن لنا أن نعيش معاً دون أن تكون هناك قيم عامة نستند إليها إن اختلفنا، وإن رأينا البشر يتصرفون مرة أخرى مثل القرد ، قيم تمكننا من أن نسمى الإنسان إنساناً والقرد قرداً؟ .

6- نيتشه الألمانى (1844م – 1900م) :

ولد نيتشه عام 1844م وإن أجداده لأبيه ، كان معظمهم من رجال الدين المسيحى، كما أن أمه من أسرة إيلر وهى بدورها أسرة شغل كثير من أفرادها مناصب دينية ، وهكذا كان الدين يلعب دوراً أساسياً فى طفولة ذلك الذى أسمى نفسه فيما بعد "والذى كرس حياته ليوجه إلى القيم الدينية أعنف نقد تعرضت له خلال ألفى عام . وكان فى أول حياته ينوى التخصص فى اللاهوت.

وفى عام 1888م ظهرت عليه علامات الجنون الحقيقية ، وقضى نيتشه ما يقرب من اثنى عشر عاماً فى فيمار بعيداً كل البعد عن عالم العقلاء، إلى أن مات فى 25 أغسطس عام 1900م.

فى عبارته المشهورة " لا يعبر عن موقفه الشخصى فى الإلحاد فحسب، بل يعبر عن الاعتقاد بأن العالم الآخر، بكل صوره الفلسفية، قد فقد دعامة ، وانهار من أساسه. وكان نيتشه يهدف من وراء فكرة " إلى إفساح الطريق

أمام الإنسان، حتى يمكنه أن يحقق كل ما تتسع له جهوده . أما التجاء الإنسان إلى الدين فإنه يرجع إلى أنه سئم غيره من الناس، ورأى حياته عاجزة، فسعى إلى ما هو أعلى منها. وهو في هذا يقول "

" .ونيتشه، وإن كان ينفر بدوره من الصورة الحالية للإنسان ، فإنه لا يريد أن يكون هذا النفور من أجل أية حقيقة عليا، بل يريد أن يتجاوز الإنسان ذاته فحسب . فهو ينظر إلى فكرة الله "سبحانه وتعالى" على أنها تمثل الحد النهائي الذي لا تستطيع قدرة الإنسان الخالقة أن تتعدها، فهو إذن عقبة ينبغي إزالتها. وهذا هو معنى كلمته المشهورة"

" . ففى رأيه أن بين الله والإنسان فى الخلق ..
تعارضاً، ولا بد لكى يتسع الطريق أمام قوة الإنسان الخالقة من أن تزاح كل العقبات من طريقه.⁽¹⁾

يرى نيتشه أن الروح الدينية ظاهرة منحرفة، وأن العقيدة الدينية تحط من قدر الإنسان، ذلك أن المتدين يؤمن بالوحى أى أن أفكاراً تهبط من مصدر يعلو عليه، بحيث لا يكون ذهنه ما هو إلا أداة تتلقى هذه الأفكار سلبياً فحسب، وهذه هى المشكلة الكبرى فى الدين: " فكيف يتسنى للمرء أن ينظر إلى آرائه هو عن الأشياء ، على أنها وحى ؟ تلك هى مشكلة أصل الأديان " ففى كل عقيدة دينية كان هناك رجل يؤمن بالوحى، بحيث إنه عندما كوّن تصوراً شاملاً عن العالم، لم يستطع أن يتصور أن يكون هذا النظام والجمال من صنع ذهنه هو، فينسبها إلى قوة عليا () . وهو بذلك يضيف على رأيه مزيداً من القوة ويجعله بمنأى عن النقد والشك أى يجعله مقدساً . "حقاً إن مكانة المرء ستهبط عندئذ، فيصبح مجرد أداة، ولكن رأيه سينتصر فى آخر الأمر، حين يصبح فكره إلهياً" .

وينتقد نيتشه فكرة الألوهية فيقول: "إن وجود الله ذاته كان يغدو مستحيلًا لو لم يوجد أناس حكماء، ويتساءل " أليكون لها خيراً ذلك الذى يعلم كل شىء ، ويقدر

(1) فؤاد زكريا، نيتشه ، سلسلة نوايغ الفكر الغربى ، دار المعارف، فبراير 1956، ص 40.

على كل شيء ، ولا يعبأ مع ذلك بأن تكون مقاصده مفهومة لمخلوقاته... ألا يكون
إلها شريراً ذلك الذى يملك الحقيقة ، ويرى العذاب الأليم الذى تعانيه البشرية من
أجل الوصول إليها؟"

لقد وجه نيتشه نقداً لا ذعاً للأديان بوجه عام والمسيحية وفكرة الخلاص بوجه
خاص، مؤكداً أن النظام الذى سارت عليه الكنيسة بما فيه من قساوسة، ولاهوت،
وطقوس ، هو ما كان يحاربه المسيح بوجه خاص ، وهو الذى صبغ المسيحية بالصبغة
الحالية ، وينسب كل هذه التغيرات إلى عصور تالية، من أهمها القديس بولس. وهو
يرى فى المسيحية أفكاراً لا يكاد يصدقها عقل فى العصر الحديث إذا تم تأملها بشيء
من الموضوعية فيقول: "عندما نستمع فى صباح الأحد إلى دقات الأجراس القديمة،
فعندئذ نتساءل: أهذا ممكن ! إن ذلك كله من أجل يهودى صُلب من ألفى عام ، كان
يقول إنه ابن الله ، وهو زعم يفتقر إلى البرهان" . وفى موضوع آخر يقول "فلنتصور
إلها ينجب أطفالاً من زوجة فانية.... وخطايا ترجع إلى إله ، ويحاسب عليها نفس
الإله، وخوفاً من عالم آخر يكون الموت هو المدخل إليه.... لكم يبدو لنا كل ذلك
مخيفاً، وكأنه شبح قد بعث من الماضى السحيق، أصدق أحد أن شيئاً كهذا لا يزال
يُصدق؟"⁽¹⁾.

كان نيتشه متحمساً للعلم ومؤمناً به إيماناً عميقاً، وأن العلم ليس له حدود معينة
يتوقف عندها . وأن الفرق الجوهرى بين العقلية الخرافية والعقلية العلمية هو اعتقاد
الأولى بأن الكون يسير بالفعل وفق غايات الإنسان ، وما نهضت الروح العلمية إلا منذ
اللحظة التى تخلى فيها العقل عن هذا الاعتقاد الواهم ، ووضع فيها الإنسان لنفسه
شعاراً جديداً هو: إذا لم يكن العالم يسير وفقاً لغاياتي ، فلأجعله يسير وفقاً لها ، بالعمل
والجهد، لا بالأسطورة والخيال! وفى هذه اللحظة وحدها نستطيع أن نقول: إن العلم
الحقيقى قد بدأ. فما العلم إلا محاولة منظمة لتسخير الكون لخدمة الإنسان ، وللتحكم
فى تلك الظواهر التى كانت تبدو من قبل مستحيلة تماماً عن سيطرته. وإذا كان التقدم

(1) لمزيد من التفاصيل انظر: فؤاد زكريا ، نيتشه، مرجع سابق ، ص 129 - 136.

العلمى الحديث قد عبر ضمينا عن هذه النظرة الجديدة ، فإن الفلسفة قد تأخرت في المجاهرة بها ، وفي التعبير الواعى عنها . ويرجع الفضل لنيته في التصريح بما كانت تنطوى عليه النهضة العملية الحديثة ضمنا ، وفي التعبير عن الفلسفة الكامنة في كل تقدم أحرزه العقل البشرى ، وخلق العالم من القيم التى لا يخلقها إلا الإنسان ذاته ، و لا تضيفها على العالم إلا مطالبه وحاجاته .

ويرجع الهدف الذى كان نيتشه يرمى إليه من دعوته إلى انقلاب شامل فى القيم ، أن هذه الدعوة هى الخطوة الأولى الأساسية التى لا يمكن أن تقوم ثورة عقلية أو علمية بدونها ، فالقول بنسبية القيم يفتح أمامنا السبيل الى محاولة تغييرها ، ولا يجعل هذا التغيير مستحيلاً ، وأن أى سعى لتغيير الأوضاع التى يحيا عليها الناس ، سواء فى المجال الفكرى أو فى المجال الاجتماعى ، إنما يفترض مقدما إيمانهم بأن المعايير التى يقيسون بها الأمور ليست معايير أزليه ثابتة ، فرضت عليهم بقوه لا سلطان لهم عليها ، وإنما هى معايير صنعها الإنسان لهدف معين ، وفى وسعه أن يبدلها إذا شاء أن يضع لنفسه هدفاً آخر .

نيتشه والأخلاق:

وجه نيتشه أعنف نقد له إلى الأخلاق ، فهو يناضل نضالاً عنيفاً ضد التراث الأخلاقى الذى أخذت به المجتمعات المتحضرة ، والذى كان يبدو راسخاً متأصلاً فيها ، وكأنه مجموعة من المبادئ الأزلية التى لا يجروء أحد على مناقشتها . وهو يرى أن الفلسفة متضامنة مع الدين فى مؤامرة تهدف إلى اقتلاع الحياة من جذورها ، وإحلال إرادة "إماتة الحياة" محل إرادة الحياة . لذلك كان الهدف الأول للاتجاه اللا أخلاقى عند نيتشه هو الخروج عن هذا التقويم السائد للسلوك الإنسانى " وهو التقويم الذى يؤدى فى رأيه إلى تجريد الإنسان رويداً رويداً من كل ما يجب إلى نفسه الحياة ، وإلى بعث روح العزوف عن العالم فى الإنسان . كما أن المبادئ الأخلاقية كلها تلمس فيها نوعاً من الخداع والتضليل ، وتعطى إحساساً غامضاً بأن ظاهر المبدأ غير باطنه ، وأن ما يدعوك إليه مخالف للنتائج الفعلية الناجمة عنه ، إذن غايتها النهائية

مستحيلة التحقيق ، ومن الطبيعي أن تنطوى الأخلاق على خداع ذاتي تسببه تلك الهوة السحيقة بين غايتها وبين ما تستطيعه الطبيعة البشرية .

ويضرب نيتشه مثلاً بفكرة الشفقة التي تدعو إليها الأخلاق الدينية بوجه عام ، وتجعل منها شعوراً نبيلاً يحتل موقع الصدارة من مشاعرنا الأخلاقية ، ولكن هل هي شعور أخلاقي نبيل بحق ؟ إن ظاهرها هو التعاطف مع الآخرين ، والرغبة في مشاركتهم كل أحاسيسهم ولكنها تنطوى مع ذلك على نفس الخداع الذاتي . فما هي في الواقع إلا أنانية مستترة . ذلك لأننا كثيراً ما نشفق على غيرنا خوفاً من أن يحدث لنا مثل ما حدث لهم ، بحيث إننا نهدف من عطفنا عليهم إلى الدفاع عن أنفسنا ضد احتمال وقوع مثل هذا الضرر لنا ، أو نحمي أنفسنا من الشعور المؤلم الذي يتتابنا كلما صادفنا مثل هذه الأزمات . فالمسألة في الواقع ترتد إلينا نحن في نهاية الأمر ، ونحن نشفق وفي ذهننا حالتنا نحن ، لاحالة الآخرين ⁽¹⁾ .

كذلك الحال في ، التي ترتبط بالشفقة ارتباطاً وثيقاً ، بل تكون شرطها الضروري . فالغيرية في ظاهرها تنم عن فيض من الكمال الذاتي ينتقل من الأنا إلى الآخر ، فإنها في حقيقتها ليست إلا وسيلة لإفقار الذات وإضعافها . فعندما يتجه الإنسان إلى غيره فهو يهرب من نفسه ولا يواجهها مواجهة صريحة . ليس تعبيراً عن كمال ذاتي فائض ، إنما هو " وذلك لأن مواجهة الإنسان لنفسه ، وبذله كل جهوده لبعث الكمال فيها ، هو أمر عسير إلى أبعد حد ، وكثيراً ما يحس المرء ميلاً قوياً إلى الهروب من مواجهة ذاته ، والتحول عن سعيه إلى كمالها ، فتتحرف طاقته وفاعليته ، وتتخذ شكل الغيرية .

إن نقد نيتشه لمبدأ الشفقة والغيرية لم يكن نابعا من سعيه إلى الإصلاح الاجتماعي الشامل ، بل إن نقده للشفقة يرجع إلى أنها تبعد الإنسان عن ذاته ، وعلى ذلك فإن هدفه يتركز على الفرد وحده ، وغايته أن يرد إلى الفرد كل مظاهر فاعليته ، التي يعتقد أنها

(1) فؤاد زكريا ، نيتشه ، مرجع سابق ، ص 78 .

تبتدد إذا خرجت عنه إلى الغير . لذلك يجب أن تتركز قوة الإنسان في داخله فحسب، وأن يهتم كل شخص بذاته فقط.

ويرى نيتشه أن " يجب أن يحل محل الشفقة، فالأقوياء هم الذين تمتلئ نفوسهم إلى الحد الذي تفيض معه على الآخرين دون أن يكون هذا الفيض غاية في ذاتها، ودون أن تعباً باتجاهه أو بمن سينالهم نفع منه.

وهنا لا بد أن نوضح أن عندما تدفعنا إلى الشفقة على الآخرين لا تهدف إلى مجرد العطف عليهم ، وإنما تمكينهم من النهوض بأنفسهم. وإن الشفقة لا تعنى السلبية التي تتمثل في الاعتراف بالأمر الواقع والعجز عن تغييره والقيام بمحاولة جزئية للتخفيف من الضرر المحتوم بقدر الإمكان. بل إن الشفقة الحقيقية هي مواجهة الواقع ومحاولة تغيير الظروف السيئة التي جعلت الآخرين في حالة يستحقون معها الشفقة .

، حين جاءه من يسأل صدقة وكان قوى البدن ذا عافية. فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن أمره بأن يأتي بما يملك (جلس وقعب) وباعها الرسول، وصنع له قدوماً يحتطب به من الصحراء، وأعطاه مهلة يراه بعدها رسول الله لينظر ماذا فعل؛ هل نجح في هذه المهنة أم لا. وبعد انقضاء المدة المحددة جاء الرجل وقد أصاب عشرة دراهم، فقال له الرسول ﷺ: "

:"
(1) "

أخلاق السادة وأخلاق العبيد:

يرى نيتشه أن الأخلاق السابقة هي أخلاق بالية لا تصلح لتوجيه الإنسان نحو المثل العليا. ذلك لأننا نعيش في فترة من فترات التدهور الأخلاقي، أو ما يسمى

(1) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : حامد محمود مرسى، المنهج الإسلامي لعلاج مشكلة الفقر، دار الطلائع ، القاهرة ، 2007، ص 63-66 .

بأخلاق العبيد. فعندما تسود المبادئ الأخلاقية الزاهدة الداعية إلى الهرب من الحياة ، تكون أخلاق العبيد . أما أخلاق السادة فهي أخلاق الأقوياء ، حيث تتضمن دائماً ما نشعرنا بالقوة والوفرة والسمو الناشئ من إحساس الامتلاء، ومن ثم فإن أخلاق السادة مقابل أخلاق العبيد ، والتقابل بينهما يماثل التقابل بين " " و " " . والسمة التي تتميز بها هاتان القيمتان هي أنهما لا تعبآن مطلقاً بأن يكون الفعل خيراً بمعنى أنه طيب، وإنما مقياس أخلاقية أى فعل هو أن يعبر عن روح القوة التي يستشعرها الإنسان في ذاته، وأن يلائم تلك النفوس الزاهرة التي تشعر بأنها هي مانحة القيم وخالقتها . فإذا ما صدر عنها الخير ، فهو لا يصدر عن خوف أو إكراه أو ضغط ، وإنما يصدر عن إحساس قوى بالوفرة والقوة الفياضة الباذلة.

ويرى نيتشه أنه تأمل النظم الأخلاقية في الأمم المختلفة ، وخرج منها بنتيجة واحدة، هي تناوب أخلاق السادة، وأخلاق العبيد في السيادة. ومن هذه الزاوية وضع للتاريخ الأخلاقي للإنسانية تقسيماً جديداً : ففي العصر اليوناني والروماني تسود أخلاق السادة وتكون الغلبة للأقوياء، ثم تنتصر أخلاق العبيد على يد اليهودية والمسيحية، ويسود الضعفاء والمتخاذلون.

إن هذا التقسيم للتاريخ الأخلاقي للإنسانية غير صحيح بالمرّة ، فالقوة في تلك العصور التي تناولها نيتشه ، لم تكن قوة معنوية ، بل قوة مادية ، بمعنى أن الأقوياء لم يكونوا هم أصحاب المشاعر الأخلاقية الرفيعة ، الذين تفيض نفوسهم بالامتلاء المعنوي، والفيض الحيوي، بل كانوا هم المسيطرون على زمام الأمور، عن طريق قوة السلاح، أو قوة المال . إننا نعيب على كبار فلاسفة اليونان ، مثل أفلاطون وأرسطو، أنهم قد تغاضوا عن مساوئ نظام الرق القائم في عصرهما الذي سيطرت فيه الأقلية الأرستقراطية على الأكثرية الضعيفة، والتي في رأى نيتشه ينبغي أن تظل مستعبدة . ومن ثم فإن أرستقراطية هذه العصور لم تكن أرستقراطية معنوية أو أخلاقية، بل كانت القوة الغاشمة هي العامل الوحيد لسيطرة الأقوياء وعبودية الضعفاء . وهذا ما

يحدث الآن حيث تسيطر الولايات المتحدة الأمريكية على العالم بالقوة الاقتصادية والعسكرية الغاشمة.

نظام الرق اليوناني وهو أصلح النظم في نظر نيتشه ، حيث أنجب هذا النظام العقول النظرية الكبيرة مثل أفلاطون وأرسطو، الذي دعى كل منهما إلى توفير الراحة " من الناس حتى يتفرغوا للمهام العقلية الكبيرة، فكذلك يدعو نيتشه إلى نوع من نظام الرق ، حتى يمكن أن توجد طبقة أرستقراطية تنهض على أيديها الحضارة الحديثة .

مشكلة المرأة :

يُلخص رأى نيتشه في المرأة عادة بكلمته المشهورة "أذهب أنت إلى المرأة؟ لا تنسَ إذن سوطك!". ربما ترجع قسوة نيتشه في رأيه في المرأة إلى طفولته التي عاشها بعد وفاة أبيه مع أمه وأخته وجدته وعمتين عانستين، وكذلك فشل علاقاته النسائية بعد ذلك . لذلك كان إيمانه بأن المرأة بطبيعتها مخلوق ناقص، وفيها من العيوب الكامنة ما يحتم علينا ألا نعهد إليها بأى عمل جدى. ومن ثم فإن طبيعة المرأة ذاتها عقبة في وجه حركة تحرير المرأة.

